

## بلاد المغرب

أحاول منذ سنوات ، بقدر وسائل بحوث اللغوية والتاريخية ، وهي متواضعة ، أن أحدد أوضاع لفظ « المغرب » جغرافية واستعمالا ، فلم أوفق ، على ما يرضيني من دقة . ولجأت إلى من هم أكثر منى توافراً على تلك الدراسات ، ومنهم بعض الأساتذة المستشرقين والمستعربين ، فلم أحظ منهم بما يطمئن . ورجوت أن أعثر خلال رحلتي الأخيرة إلى الشمال الأفريقي بين مراجع مكتباتها العامة على ما يهدى فلم أجد . وأخيراً انتهيت إلى الوقوف عند حد « المشهور » ، وهو أن العرب الذين فتحوا أفريقيا هم الذين أطلقوا الغرب والمغرب على ما وراءها نحو المحيط الأطلنطي ، وأن الاصطلاح قد جرى على نعت منطقته البعيدة عن أفريقيا بالأقصى تمييزاً لها وتعييناً ، كما يجري عرف العامة الآن على تسمية ما بين المغرب الأقصى وتونس بالوسطى ، وهي المنطقة الوسطى من مناطق الجزائر لسياسية الحالية ؛ لأن منطقها الغربية بعاصمتها تلمسان إنما كانت دوماً من المغرب الأقصى ، ولأن منطقها الشرقية حتى قسطنطينة كانت دوماً من أعمال أفريقيا . ولم يجر ، عند حد علمي ، استعمال « المغرب الأدنى » للدلالة على سىء بعد . أما تحديد المغرب الجغرافي فانه يبدأ عند المصريين والمشاركة من حدود مصر الغربية ، أي إنه يشمل برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهو عند المغاربة في عموم من حدود تونس الشرقية ، فلا يشمل طرابلس ولا برقة . لكن التحديد الوارد في بعض الموسوعات وفي بعض المؤلفات في الأجناس إنما يعتبر صحراء ليبيا الكبرى هي الفاصلة بين المشرق والمغرب ، وهي الصحراء التي تقوم من ناحية البحر المتوسط بين برقة وطرابلس ، فتكون برقة ومصر وما شرقيهما إلى الخليج الفارسي بلاد المشرق ، وتكون طرابلس وتونس وما إلى غربيهما إلى المحيط الأطلنطي بلاد المغرب .

أما سكان المغرب فهم في كثرة عظيمة من العنصر البربري الذي استوطن

شمال أفريقيا منذ عرف التاريخ هذا الشمال . والمعتبر الآن عند المؤرخين أن البربر كنعانيون ، هاجروا محترقين مصر ولويا منتسبين لمازيغ بن كنعان ابن سام بن نوح ، فدعوا أنفسهم « الأمازيغ » ، وفسروا اللفظ على أنه يعنى « السادة الأحرار » لا يتحملون الخضوع لسلطان ولا يدعون إلا للقوة على مضض ، ولا يخالطون . وقد ذكر ابن خلدون أن البربر ارتحلوا مما بين النهرين ، وأنهم أقاموا بعض الوقت فى مصر قبل أن يقصدوا إلى شمال أفريقيا « خوفاً أو طمعاً » كما فعلت من بعد « فى دولة الحماديين جماعة عظيمة من الأعراب من صحراء مصر » . وذهب هذا المذهب البحاثة الفرنسى دوما ؛ إذ قرر أن البربر من أبناء كنعان ، وأن بينهم وبين أهل الصعيد المصرى وجوه شبه عدة . وأيد غيره هذا التقرير بأنه يوجد حتى اليوم « فى الزناقة وهى قرية فى جنوب الجزائر عند منتصف الطريق بين بنى سويف وواحة الفقيق — وهما بالجزائر أيضاً — رسم بربرى عتيق منقوش على صخر يمثل الاله المصرى آمون بصورة كبش على رأسه شمس مماثلة لصورة آمون رع المنقوشة على حجر بمعبد الكرنك الفرعونى » .

والبربر قلة فى تونس حيث العنصر العربى هو الغالب ، وقد كانت الفتوحات الاسلامية تعتبرها هى المعسكر والمستقر ، لكنهم كثرة فى الجزائر وفى مراكش . وقد تعربوا لغة فى عموم ، وأسلموا ديناً فى شمول ، بل إن الاسلام ليبدو فيهم أمتن وأدنى إلى الغلو والاعراق ، وإن كانت بينهم قبائل تريد أن تتميز ببربريتها فتحافظ على تقاليدها الخاصة فى الاجتماع . وتستند هذه التقاليد إلى نظام الأسرة ، فتكون من مجموع الأسر التى يتحد أصلها وحدة اسمها الخروبة تخضع لسلطة كبيرها الذى يشرف على حفظ النظام وفض المشاكل العائلية والقضايا المدنية ، يرجع إليه أمر الزواج والطلاق ، ويقوم باكرام الزائرين والضيوف ، ويسير الأمور الفلاحية ويوزع أعباءها على أفراد خروبه .

ومن مجموع الخروبات تؤلف القبيلة مجتمعة حول ذكرى جد أعلى . وتعنى القبائل أكبر عناية بموضوع الحرمة أى احترام الجوار لأرض القبيلة أو القرية وشرفها، ويتحالف القبيلة مع القبائل الأخرى للهجوم أو الدفاع أو تبادل المصالح . وللبربر مجالس عرفية هى مجالس الجماعة يجتمع فى كل منها رؤساء الخروبات والمشايخ والأعيان ولبقون بالضمان . ويختص المجلس بالنظر فى قضايا الجنایات والجنح وفى الشؤون السياسية والمالية ، ويقوم بعبارة المسجد

والحفاظة على المقابر وتوزيع مياه الري وإضافة رجال السلطة . ويجب أن تصدر قرارات المجلس باجماع الآراء ، فان لم يعقد الاجماع على رأى تأجل صدور القرار إلى وقت ملائم آخر ، أو جرى تحكيم أجنبى عن المجلس فى موضوع الخلاف ، ويكون قولهم هو الفصل . وللمجلس رئيسه ينفذ قرارات الجماعة ويسهر على الأمن واحترام الأخلاق .

ويقع شىء من الخلاف على تسمية الجزء الرابع من أجزاء المغرب بعد طرابلس وتونس والجزائر : فمن قائل إنه مراکش ، ومن قائل إنه المغرب الأقصى ومن قائل إنه المغرب . ويقع هذا الخلاف فى التعبير فى بلاد المغرب كلها وفى بلاد المشرق أيضاً . أما فى بلاد المشرق وفى تونس فيغلب استعمال مراکش للدلالة على ذلك الجزء الرابع ، ويقبل استعمال المغرب الأقصى ، ويندر استعمال المغرب وحده . وأما فى الجزائر فيندر استعمال مراکش ، ويتناوب القوم استعمال المغرب أو المغرب الأقصى . وفى الجزء الرابع ذاته يغلب استعمال المغرب ويتداول استعمال المغرب الأقصى ويندر استعمال مراکش . على أن بين أهل الذكر والشباب المثقف تياراً متجهاً إلى إثارة استعمال مراکش . ويستند هذا الاتجاه إلى أن التعبير بالمغرب فى شموله قد قل كما قل استعمال لفظ المشرق ، وأن التعبير بشمال أفريقيا هو الذى أخذ يغلب استعماله ، أو أن التعبير بالمغرب العربى مقابلاً « للمشرق العربى » هو الذى يدعى له الآن فى بعض البيئات ، وأن النعت بالأقصى يستدعى قيام مقابلة التعبير بالأدنى والأوسط ، وشىء من هذا لم يجربه اللسان ولم تجر به الأقلام لافى العربية ولا فى لغة من اللغات الأجنبية . وكذلك يستند الاتجاه الجديد إلى أن مراکش هو الاسم القديم الأصيل لتلك المنطقة ، وقد أطلق عليها أخذاً عن اسم عاصمتها على النحو الذى كان ذاتماً فيما مضى من عهود ، وأنه مركب من لفظين ، يرجع أحدهما إلى أصل عربى صميم ، ويرجع ثانيهما إلى أصل بربرى ؛ فكأنه يمثل الوحدة الحالية بين فريقى السكان المتأخين ، و « مر » بضم الميم فعل أمر من مرو « كش » بضم الكاف أيضاً معناها بالبربرية سريعاً . وإلى هذا فان أصحاب الاتجاه يحسبون تحقيقه تحية منهم للاستعمال المشرقى ، وهم يريدون أن تحكم الأواصر بين المغرب والمشرق . . . .

ويختلف الوضع الدولى فى بلاد المغرب باختلاف هذه البلاد ذاتها . فاذا أخذنا بوجهة نظر المشاركة إلى بدء حدوده عند تخوم مصر الغربية ، فان ذلك الوضع فى برقة هو وضع إحدى المستعمرات الايتالية التى قضى مشروع معاهدة الصلح مع إيتاليا بنزول هذه الدولة عن حقوقها فيها ، وتأجيل تقرير مصيرها سنة . وهو كذلك وضع الاقليم الذى تحتله قوات بريتانية وتتولاه إدارة بريتانية خالصة . أما الموقف من طرابلس فهو أيضاً ذات الموقف من برقة من حيث الاعتبار النظرى وتأجيل المصير النهائى إلى سنة والاحتلال بقوات بريتانية . لكنه يختلف من ناحية أن الادارة فيه معهود بها للموظفين الايتاليين الذين كانوا يتولونها قبل الحرب ، تحت الاشراف البريتانى . والوضع فى تونس وضع الارتباط بمعاهدتى حماية مع فرنسا منذ سنة ١٨٨٢ . والوضع فى الجزائر أنها تؤلف ثلاث مقاطعات فرنسية تتكون منها ولاية عامة . وأما الوضع فى مراکش أو المغرب الأقصى فرباعى المظاهر : مظهر الحماية الفرنسية فى المنطقة السلطانية الكبرى ، وعاصمتها الآن هى الرباط ، ومظهر الحماية الاسبانية فى المنطقة الخليفية الصغرى وعاصمتها الآن تطوان ، ومظهر اللحاق المباشر بأسبانيا فى سبتة ومليلة ، ثم مظهر الادارة الدولية فى الركن الأصغر المطل على المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط وهو ركن طنجة . ورأس الدولة فى هذه المناطق ، لإسبنة ومليلة ، هو سلطان المغرب الأقصى الجالس على عرشه فى الرباط ينوب عنه خليفة من بيته فى تطوان ، ويمثله مندوب فى طنجة . وإلى جانب السلطان المقيم العام الفرنسى ، وإلى جانب الخليفة المندوب السامى الاسبانى ، وإلى جانب المندوب مجلس إدارة يرأسه الآن « مراقب » برتغالى يعاونه مديرون فرنسى وأسباني وبريتانى وأميريكي وبلجيكي وهولندى يلحق بهم فى القريب روسى . . .

وكانت الفكرة التى سادت « تدويل » منطقة طنجة إنما هى فكرة الاعتبار الاستراتيجى البريتانى ، وقد أرادت بريتانيا العظمى ألا تقابل جبل طارق - قلعتها فى الشاطيء الأوروبى من مدخل البحر المتوسط - قلاع لدول قوية على الشاطيء الافريقى . أما الفكرة التى سادت فتح الجزائر فحماية تونس لحمايتى المغرب الأقصى ثم فتح طرابلس الغرب ، فكانت هى فكرة الاستعمار والاستعمار المباشر ، إذ نظم انتقال الفرنسيين والأسبانيين والايتاليين ، وكثر

بين الفرنسيين أهل الألزاس عندما استولت عليها ألمانيا بعد حرب السبعين وأهل الكورس ، كما كثر بين الايطاليين أهل صقلية ، وانضم إلى الجوانب كلها نازحون عن مالطا ، وإذ نظم بينهم امتلاك الأراضي ، وهيئت لهم أسباب الاستثمار ووسائل الفلاحة ، ودخل في أبواب هذا التنظيم تجريد الملاك الأصليين والدفن بهم إلى الداخل ، وفك الأحباس واعتبارها من أملاك الدولة وتوزيعها على النازحين . . .

وقد نشأت عن هذه الخاصية ، خاصية الامتلاك الواسع والاستقرار الطويل من جانب عدد وفير من الفرنسيين والاسبانيين والايتاليين ومن إليهم ، حالة يتميز بها المغرب في عمومه عن مصر وبلاد المشرق في عمومها كذلك . فالحياة فيه حياتان ، تكاد تكون الواحدة منهما منعزلة تمام الانعزال عن الأخرى . ولقد شهدت في تونس والجزائر ومراكش - وهي الأقطار التي زرتها أخيراً - أن سياسة العمران مستندة إلى مبدأ الثلاثية ، فكل مدينة مؤلفة من ثلاث وحدات : المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، والمدينة الأوربية . والمدينة القديمة هي الأصلية العتيقة التي تحرص إدارة الفنون الجميلة على إبقاء قديمها على ما هو عليه مهما يكن هذا الإبقاء منافياً لأصول الصحة ومستلزمات الراحة . والمدينة الجديدة تتسع الشوارع فيها عن « حارات » المدينة القديمة ، وتقوم فيها الدور التي لا بأس بها . والمدينة الأوربية تشفق فيها العائر وتنظم الطرقات وتتوافر فيها وسائل الحديث في كل شيء . وقد تتصل المدينة الجديدة بالمدينة القديمة أو لا تبعد عنها إلا قليلاً ، ولكن المدينة الأوربية تبعد عنهما بكيلومترات . ويقطن الأهلون المدينة القديمة والمدينة الجديدة ، ويقطن الأوروبيون المدينة الأوربية ، فتكون العزلة بين الحياتين وهكذا أحسست في بنزرت وفي فاس وفي الدار البيضاء .

على أن هذا التجاور بين القديم والحديث لا تقف مظاهره في المغرب عند حد العائر في المدن ، بل إنه ليتجاوز إلى جميع مظاهر الحياة في الاقتصاد والاجتماع والثقافة . فالاتاج الحديثة تتاخم الآلات التقليدية العتيقة ، والمذاهب الشيوعية ، تدعو إليها أحزاب منظمة وتنطق بلسانها صحف منتشرة ، تتاخم أضرحة المرابطين ودور أرباب الطرق . ومعاهد التعليم الفرنسى الخالص على ما هو قائم في باريس نفسها من رياض أطفال ، و « ليسييات » للتعليمين

الابتدائي والثانوي الموصلين لاجازة البكالوريا ، وجامعة كاملة الكليات ملحقة بها معاهد الدراسات العليا ، تتاخم الكتابيب التي يجلس فيها الأطفال على الحصير ويحفظون فيها القرآن على الطريقة البالية ، وإن كان بينهما نظام وسط فيما يسمونه المدارس الفرنسية الاسلامية وما تمتاز به المدرسة الصادقية بتونس ، وما يتجلى من اتجاه إلى الاصلاح والترقي يلوح في « الخلدونية » التي أقيمت إلى جانب جامع الزيتونة بتونس لتم الدراسة التقليدية بالجوانب العصرية والطرائق الحديثة .

ولقد نشأ من ذلك التناخم بين القديم والحديث - وإن كانت العزلة بينهما هي المتجلية - شيء من التفاوت في طبائع الحركات الداعية إلى الاصلاح والتحرر في بلاد المغرب ، وقد وجدتها هي الأخرى ثلاثية كما سجلتها بالنسبة لحركة العمران في المدن . ففي تونس مثلاً جماعة الزيتونيين ، وحزب الدستور القديم ، وحزب الدستور الجديد . وتستند الجماعة الزيتونية إلى الروح الاسلامية ، ويحرص الدستوريون القدماء على أن يظلوا في حدود الاصلاح الاجتماعي المعتدل ، ويحمل الدستوريون الجدد طابع التقدم والعصرية . وفي الجزائر يتجلى الطابع الديني عند جماعة العلماء ، ويستمسك حزب الشعب بالاتجاهات الايمانية الشعبية ، ويذهب زعماء اتحاد البيان إلى حدود الأخذ بالعصرية . وفي مراكش تبرز الدينية عند جماعة الخلافة ، ويقف حزب الاستقلال عند الاستمسك بتعاليم الاسلام . ويلوح لى حزب الشورى والاستقلال أميل إلى طريق التقدميين وإن كان يحرص على ألا يدع حزب الاستقلال يسبقه إلى الظهور بمظهر الاستمسك بالاسلام وتعاليمه .

ويرجع ذلك التفاوت إلى ما بين الزعماء من تفاوت بين أنواع التحصيل ؛ فيتولى الحركات التقدمية من حصلوا العلم في المدارس الفرنسية أو بجامعة باريس ، ويتولى الحركات الاصلاحية الدينية من نشأوا نشأة دينية في القرويين بفاس أو الزيتونة بتونس ، ويتولى التوجيه السياسي من كان وسطاً بين الاثنين . على أن حركاتهم كلها من الناحية الوطنية تهدف إلى هدف واحد هو هدف التحرر والاستقلال .